

المحادثة كمارسة لغوية: بحث في البنية والمفاهيم الأساسية

Conversation as a Linguistic Practice: A Research in Structure and Basic Concepts

د. حكيمة حمقه

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية

ملخص : يتناول هذا المقال الذي جاء تحت عنوان "المحادثة كمارسة لغوية: بحث في البنية والمفاهيم الأساسية" نصا ذا خصوصية نوعية، ألا وهو المحادثة التي تعتبر من أهم الأنشطة اللغوية في الممارسة اللغوية اليومية، كما عملنا على تقديم جهود مدرسة جوناف، من خلال أعمال جاك موشلر وكاترين أوريكيني من الجانب الفرنسي، في وضع مفهوم شامل للمحادثة، مع الخوض في مصطلح "النحو المحادثي"، إضافة إلى عرض أهم العناصر التي تندرج تحت مصطلح المحادثة.

الكلمات المفتاحية: المحادثة، التفاعل، المقطع، التبادل، التدخل.

Abstract : This article, entitled "Conversation as a Linguistic Practice: A Research in Structure and Basic Concepts", deals with a text with specificity, which is one of the most important linguistic activities in daily language practice, as we worked to present the efforts of the School of John through the work of both Jack Moschler and Catherine Eurykune in developing a comprehensive concept of conversation while discussing the term "conversational grammar" in addition to presenting the most important concepts that fall under the term conversation.

Keywords : conversation, Interaction, Section, Exchange, Intervention.

إذا كانت اللغة تصنف من بين أهم وسائل الاتصال والتواصل في المجتمعات البشرية، فإن المحادثة تدخل ضمن أنماط الأداءات اللغوية المتعددة، فهي عملية تواصلية تظهر في أدنى مستويات الممارسة اللغوية بين أفراد المجتمع، لكونها الشكل الأساسي "الأصلي للنشاط اللغوي، وتسبق كل الأنشطة الأخرى للتفاعل اللغوي في تاريخ التطور، لذا يبدو مبررا الانطلاق من أن المحادثة صيغة النشاط اللغوي، التي صنعت لكل الصيغ الأخرى من النشاطات اللغوية، وما زالت تصنع وظيفة النموذج والتوجه"⁽¹⁾، فهي إذا نشاط لغوي يهدف إلى تحقيق تواصل ناجع باعتبارها النموذج الأصلي

للأنشطة اللغوية الأخرى، إلا أن هذا القول لا يمكن اعتباره تعريفاً بقدر ما هو إظهار لمكانة هذا الفعل التواصل، الذي اصطلح على تسميته بالمحادثة؛ فماذا نعني بهذا المصطلح؟ وما هي الخصائص النوعية التي تميز المحادثة عن باقي الأنشطة اللغوية الأخرى؟ وما هي الدعائم التي يقوم عليها بناؤها العام؟

1 - مفهوم المحادثة

إن تقديم مفهوم شامل للمحادثة أمر في غاية الصعوبة، ويرجع ذلك إلى طبيعتها المعقدة والبسيطة في الوقت نفسه، مما أدى إلى ظهور نقص في الكثير من التعاريف المقترحة لمفهوم المحادثة، نظراً لتركيز أصحابها على جوانب معينة وإقصائهم لجوانب أخرى يرون أنها بديهية أو ثانوية، وعليه سنعمل على تقديم المحادثة من خلال مجموعة من التعاريف المكملة لبعضها البعض، نطلق في البداية من التعريف المبني على أساس أن "المحادثة هي محصلة النشاط اللغوي لدى مشتركين اثنين في الحدث على الأقل"⁽²⁾، هذا التعريف يركز على خاصية أساسية في المحادثة؛ ألا وهي وجود شريكين على الأقل في الحدث، غير أن هذا الشرط ليس كافياً لتحديد مفهوم المحادثة، لأن محصلة النشاط اللغوي لدى مشتركين في الحدث، تستطيع أن تكون من إنتاج شريك واحد على الرغم من وجود عضو آخر في الحدث، وهو ما نجده في التفاعلات اللغوية الأحادية الاتجاه التي من الشكل:



أي يكون المتحدث إليه (ب) مجرد متلق لا يقدم أي إنتاج لغوي، على الرغم من كونه عضواً في التفاعل والحدث، وهو ما نلحظه مثلاً في حصص الأعمال التطبيقية عند إنجاز التجارب؛ كأن يقول أستاذ العلوم الطبيعية لتلميذه: "قطع البصلة وانزع منها الغشاء الداخلي"، يفعل التلميذ ذلك، فيقول الأستاذ: "قطع منه قطعة صغيرة وضعها على الصفيحة الكبيرة، ثم أضف قطرة صغيرة من المحلول وغطها بالصفحة الصغرى"، يفعل التلميذ ذلك، فيقول الأستاذ: "جيد. ضعها الآن تحت المجهر وحاول رسم ما تشاهده". إن هذا التفاعل يجمع الأستاذ والتلميذ في حدث واحد، غير أن محصلة النشاط اللغوي فيه من إنتاج الأستاذ وحده، فالأستاذ تفاعل عن طريق اللغة، في حين أن تفاعل التلميذ كان تطبيقياً، فالحدث جمع بين التفاعل اللغوي وغير اللغوي، وهو ما يسمى (les interactions verbales et les interactions non verbales)، إلا أن اعتماد التلميذ على النوع الثاني من التفاعل دون اللغة، ينفي على هذا الحدث التفاعلي - على الرغم من توفر شرط وجود

متفاعلين - صفة المحادثة، لأن المحادثة تفرض تبادلا كلاميا بين شركاء التفاعل، وهو ما أشارت إليه أوريكيوني في تقديمها للمحادثة "كسلسلة متتابعة للأدوار الكلامية (une succession de tours de parole)، غير أنه من البديهي أن هذا التابع لا يدار فقط بقواعد التناوب أو التعاقب التي عزز بها، لكن هي أيضا خاضعة لبعض مبادئ الانسجام الداخلي؛ فالمحادثة هي تنظيم يمثل لقواعد التسلسل التركيبي، الدلالي والتداولي"⁽³⁾، بمعنى أنه إلى جانب وجود متفاعلين على الأقل في الحدث، لا بد أن يعزز بشرط آخر هو التبادل الإلزامي للكلام بينهما، فلا يكون الحدث التفاعلي محادثة إلا إذا حدث فيه - على الأقل - تبادل كلامي واحد بين المتفاعلين فيه، أي أن يكون التفاعل اللغوي فيه ثنائي الاتجاه، أو متعدد الاتجاهات، إذا كان عدد المتفاعلين في الحدث أكثر من شخصين، كما يظهر في المخططين التاليين:



مع الإشارة إلى أن لهذا التبادل طقوسه الخاصة التي ينتظم وفقها، كما تخضع المحادثة - كباقي النصوص - لمبادئ الاتساق والانسجام، إذ يراعى فيها سلامة التركيب والدلالة، وحتى الجانب التداولي، مع الإشارة إلى أن طبيعة نص المحادثة وخصوصيته تجعله ينفرد ببعض القواعد الخاصة، التي تلعب دورا كبيرا في تماسكه، لذا نجد بعض الباحثين يؤكدون على أن للمحادثة نحوا خاصا بها، وهو ما اصطلحت أوريكيوني على تسميته بنحو المحادثات (La grammaire des conversations)، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بنظام المحادثة، ويمكن امثاله حسب أوريكيوني⁽⁴⁾ في: المستوى الكلي أو الشامل (global) عند إعادة بناء مخطط المحادثة أو نص المحادثة، الذي يحوي حدوث كل التفاعلات، فهذا المخطط أو النص مرتبط مباشرة بأنواع التفاعلات الموجودة داخل التبادل التواصلية (l'échange communicatif) المستعمل، ونتمثله أيضا في المستوى الجزئي (Local) بدراسة الطريقة التي يتم بها تسلسل مختلف مكونات الحوار، وذلك باتباع فعالية هذا الأخير خطوة بخطوة ونقطة بنقطة، وعليه فإن نحو المحادثة مرتبط أساسا بنظام بنائها الشكلي التركيبي، والدلالي والتداولي، فإلى جانب وجود متفاعلين على الأقل، وتبادل الأدوار الكلامية في المحادثة، لا بد أن تأتي محصلة ذلك التبادل مترابطة وسليمة من حيث بنيتها التركيبية، وأن تكون ذات أفق دلالي منسجم، ولا يكون

ذلك إلا إذا انصب حديث شركاء التفاعل في موضوع واحد يكون في بؤرة اهتمام وعيهم الإدراكي، فلا يجب على شركاء التفاعل أن يتكلموا فقط لمجرد مصاحبة الحديث، مع الإشارة إلى أن الموضوع يمكن أن يكون مجموعة من النقاط المختلفة، على أن تدرج في فكرة رئيسية تكون هي الموضوع الرئيسي للمحادثة.

كما نجد، إلى جانب شرط وحدة الموضوع في الفكر والوعي الإدراكي للمتفاعلين، مجموعة من الشروط الأخرى المرتبطة أكثر بالجانب التداولي، وهي أمور تدور حول سياق واقع التفاعل المحادثي، كضرورة اشتراك شركاء التفاعل في الإطار الزمني والمكاني، أي التواجد وجها لوجه واعتماد الاتصال الفوري والمباشر أثناء التفاعل، غير أن هذا النوع من الشروط أصبح ثانويا مقارنة بالشروط الثلاثة الأولى، ويرجع ذلك إلى التطور الكبير الذي شهدته وسائل الاتصال في عصرنا الحالي، أين استحدثت هواتف من أعلى طراز تتيح إمكانية الحديث وجها لوجه، وإن اختلفت إمكانية المتفاعلين، إلى جانب الإمكانيات التي يتيحها الأنترنت خاصة بعد إدخال الويب كام فيها، إلى جانب الدور الذي يلعبه الصاتل في المحادثات التلفزيونية، فهذه الوسائل تسمح بإجراء محادثات سليمة حتى وإن انعدم شرط وحدة المكان بين المتفاعلين، فالويب كام يسمح لشخصين أو أكثر بالتفاعل والحديث وجها لوجه، حتى وإن اختلفت نقاط تواجدهم في هذا العالم، كما يسمح الهاتف أيضا بإنجاز محادثات، حتى وإن أسقط فيها شرط وحدة المكان والاتصال وجها لوجه.

وعليه يمكن تعريف المحادثة على أنها شكل من أشكال التفاعل التواصلي، يدور في سياق معين بين شخصين على الأقل، يتفاعلان إيجابيا عن طريق ما يسمى بالأدوار الكلامية، في موضوع يشغل الوعي الإدراكي لكل واحد منهما.

2 - مفاهيم في المحادثة

أ - التفاعل: l'interaction

تقول أوريكيوني أنه "مهما يكن النوع الذي يؤخذ منه (محادثة، استجواب، استشارة طيبة...) التفاعل هو وحدة تواصلية، والتي تمثل جليا استمرارية داخلية (استمرارية مجموع المشاركين في إطار الفضاء التزماني spatio-temporel وكذلك المواضيع المتطرق إليها)"⁽⁵⁾، بمعنى أن التفاعل هو الوحدة الأساسية للعملية التواصلية التي تقوم على مواضع التعاون⁽⁶⁾، أو مبدأ التعاون بين شركاء

التفاعل لضمان الاستقرار الداخلية فيها، مع الإشارة إلى أن غوفمان قد أعاد صياغة مفهوم التعاون لغايات إجبارية الالتزام، أي أن شركاء التفاعل مجبرون على الالتزام بالقواعد الضمنية اللازمة لإنجاح التفاعل والعملية التواصلية ككل، كأن يحافظ المتفاعلون على إطار الفضاء الزمني للتفاعل، وأن يضمنوا نوع التسلسل في بناء المواضيع المتطرق إليها في الجمل، وقد ميز الباحثون في هذا المجال بين نوعين من التفاعلات هما التفاعلات اللغوية وغير اللغوية (les interactions verbales et non verbales).

التفاعلات اللغوية هي تلك التفاعلات التي تتحقق في الأساس بوسائل لغوية كالمحادثات، أما التفاعلات غير اللغوية فهي التفاعلات التي تتحقق بأي وسيلة مهما كان نوعها، دون اللغة أو الكلام كالرقص والرياضات الجماعية وغيرها، كما نسجل بعض التبادلات التواصلية التي تجمع بين النوعين؛ فالجمع بين الفعل اللغوي أو الكلامي والفعل غير اللغوي أمر لا مفر منه في بعض التفاعلات، كالاستشارة الطبية التي تتركب من مجموعة من الاستفهامات والمعاينة المادية والتشخيص والوصفة، مع الإشارة إلى أن هذا التفاعل لا نسميه محادثة، ما لم يتفاعل كلا طرفي التفاعل لغويا إلى جانب التفاعل غير اللغوي، بشرط ألا يكتفي أحد المتفاعلين بالوسائل غير اللغوية، لأن ذلك ينفي صفة المحادثة عن التفاعل، وهو ما بيناه سابقا في مفهوم المحادثة، فالتفاعل اللغوي هو أساس المحادثات والكثير من الممارسات الاتصالية والتواصلية، مثل الاستجابات والمناقشات والملاحظات العلمية واجتماعات العمل وجلسات المحكمة والمناظرات السياسية... ويعتمد في تحليل التفاعلات على مجموعة من النقاط، نحو: طبيعة الموقع المتمثل في التوقع الزمكاني، عدد المشاركين، مكانتهم، والعلاقة التي تربط بينهم، الهدف من التفاعل، درجة إجراءاته (degré de formalité)، وأسلوبه (الجدلي أو غير الجدلي)....أنلخ.

ب - التبادل: l'échange

يعتبر التبادل أصغر وحدة حوارية في التفاعل، الذي يتكون من شريكين مخاطبين على الأقل⁽⁷⁾، وكل تبادل يتكون في الأصل من تدخلين على الأقل، مع العلم أنه قد نجد في بعض الأحيان التبادل يتركب من تدخل واحد فقط، ويرجع ذلك إما إلى كون التدخل الآخر أو الثاني قد حقق بوسائل غير لغوية، كتحريرك الرأس، إجابة عن تدخل جاء في صيغة الاستفهام، أو ببساطة يكون التدخل الآخر غير موجود، وتمثل ذلك أوريكيوني ب ل1: يحي ل2: لا يتفاعل، وبذلك يكون التبادل حسبها مبتورا⁽⁸⁾ (échange tronqué)، أما عندما يكون التبادل مركبا من "تدخلين، فنحن

نتحدث عن زوج متجاور؛ التدخل الأول مبادرة (initiative)، والثاني نشاط جديد (riactif) ... نحو زوج أو ثنائية تحية - تحية (تبادل تناظري)، أو سؤال - إجابة (تبادل تناظري) (échange symétrique)، أو سؤال - إجابة (تبادل) (échange mentaire)⁽⁹⁾، وآخر حالة هي التبادل الموسع، الذي يتكون من ثلاثة تدخلات على الأقل، وهو ما نجده مثلاً في حالات التفاوض، وإذا كانت أوريكيوني قد قدمت التبادل بالاعتماد على عدد التدخلات، فإن موشلر قد اعتمد على طبيعة التبادل، وما قدمه غوفان سنة 1973، فيز بين نوعين من التبادل هما: التبادلات التأكيدية والتبادلات الإصلاحية، ونجد النوع الأول مرتبطاً بتبادلات افتتاح واختتام التفاعل، أما الثاني فيتعلق بالنشاطات أو التفاعلات ذات الطابع الإصلاحي، كمحاولة رفع إهانة غير مقصودة، أو إبطال تهديد ما⁽¹⁰⁾.

إن التبادل في المحادثة لا يعني أن يجتمع اثنان في الحديث، ويتبادلا الكلام بطريقة عشوائية غير منتظمة، بل يجب "أن يتحدثا ويندججا معا في التبادل، وأن ينتجا علامات لهذا الاندماج، بالاعتماد على طرق مختلفة لسلامة العملية التخاطبية"⁽¹¹⁾، بمعنى أن التبادل يتأتى عن طريق التزام المتفاعلين، ويظهر ذلك من خلال مجموعة من العلامات التي ينتجها شركاء التفاعل، كتركيز اهتمامهم على موضوع الحديث، وتنظيم عملية توزيع الأدوار الكلامية فيما بينهم، وذلك بالاعتماد على التقنيات الخاصة بتوزيع المساهمات الكلامية، المتمثلة في تقنيتين هما⁽¹²⁾:

- اختيار المتكلم الذي يبني مساهمته الكلامية بنفسه المتكلم أو المتدخل اللاحق له، كأن يطرح عليه سؤالاً، ويطلب منه شيئاً عن طريق تحديده بالاسم أو بالنظر إليه.

- يقدم للمساهمة الكلامية التالية له، في الوقت الذي يدعي فيه المتكلم اللاحق أحقية الكلام لنفسه، أي المتدخل اللاحق هو من يختار نفسه بنفسه.

فعلى شركاء التفاعل أن يبنوا مساهماتهم الكلامية وفق نظام مترابط ومتسلسل، لأن المساهمات المختلفة للمشاركين تكون دائماً في علاقة تبعية مشروطة، بمعنى أن كل تدخل يخلق فيما بعد نوعاً من الفرص على المتدخل اللاحق، ونظام انتظار لدى المتدخل الأول، مثلما نجده مثلاً في تبادلات التحية فقول:

م1: السلام عليكم، أو صباح الخير ل م2 يخلق فضاء انتظار لدى م1 ويمثل في انتظار رد م2 التحية له وتلفظ م1 بالتحية وتوجيهها إلى م2 يخلق نوعاً من الالتزام ل م2 بالرد، كما نشير إلى أن

التفاعل اللغوي للشركاء في التبادل ليس وحده من يساهم في ترابط وتسلسل الأدوار الكلامية، فلو سائل غير اللغوية دور كبير في ترابط واستمرارية التفاعل والمساهمات الكلامية لشركاء التفاعل، حركات الجسم اليدين الرأس خاصة، وأن الكثير من المحادثات تعتمد على المزج بين التفاعلات اللغوية وغير اللغوية، وهو ما أشرنا إليه في العنصر السابق.

ج - المقطع 13

نستطيع تحديد المقطع على أنه مجموعة من التبادلات المترابطة بشكل كبير، عن طريق الاتساق الدلالي أو التداولي، بمعنى أن مجموع تلك التبادلات تناول الموضوع نفسه، أو تركز في مجملها على المهمة نفسها، ويمكن تقسيم معظم التفاعلات - خاصة تلك التي تكون من عدد لا بأس به من التبادلات كالمحادثة - إلى ثلاثة مقاطع أساسية، هي على التوالي:

- مقطع الافتتاح.
- وسط التفاعل.
- مقطع الاختتام.

نشير إلى أن المقاطع التي تكون في إطار الافتتاح والاختتام هي المقاطع الأسهل في التحديد، لامتلاكها وظائف جد خاصة؛ فالافتتاح يكون الهدف منه هو فتح التواصل، حيث يمكن أن يعتمد الاتصال المادي أو النفساني بين المتفاعلين⁽¹³⁾، كالتصافح، إلى جانب الاتصال اللغوي، كما تتحدد فيه ذوات شريكي التفاعل.

د - التدخل

هو الوحدة الأساسية التي ينبنى عليها التبادل والتفاعل على حد سواء، تنتج من طرف متكلم واحد، على خلاف التبادل الذي ينتجه شريكان في التفاعل، ويعرف على أنه "مساهمة متكلم خاص في تبادل خاص، لا يجب الخلط بينه وبين تبادل الأدوار الكلامية"⁽¹⁴⁾، ويقدمه موشلر على أنه أكبر وحدة مونولوجية في التبادل⁽¹⁵⁾، أي أن التدخل هو المساهمة الكلامية الخاصة بكل متفاعل مهما كان طولها، وقد ذهب البعض إلى تقسيمه حسب عدد الأفعال اللغوية المكونة له، فإذا اختصر التدخل على فعل واحد سمي تدخلا بسيطا، وإذا احتوى على أكثر من فعل لغوي سمي بالمعقد، وتختلف عن التبادل في كونها نتاجا فرديا، وعلاقة التدخل أو المساهمة الكلامية بالتبادل هي علاقة

الجزء بالكل، فالتبادل (ت) الذي ينتجه شريكا التفاعل (أ) و(ب) هو في الحقيقة مجموع تدخلهما أي:

$$ت (أ، ب) = تد (أ) + تد (ب)$$

لتبيان ذلك نأخذ جزءا من محادثة "في دائرة الضوء" الذي جاء على النحو التالي:

م ك: ألا تعتقد أن المسؤولية مشتركة يتحملها الجميع

دإم: لا اعتقد

م ك: فتح حماس

دإم: حماس بدرجة أقل

م ك: لكنها تتحمل جزءا من المسؤولية

دإم: أنا شخصيا أسقط كليا المسؤولية عن حماس للاعتبارات التالية...

في هذا المقطع نحصي ستة تدخلات.

3 - بنية المحادثة

إن ارتباط المحادثة بفعل التواصل، واعتبارها النمط الأبرز والأساسي للتواصل البشري، جعل أمر دراستها وتحديد بنائها على وجه الخصوص أمرا في غاية الصعوبة، خاصة أن المرء منا يتحدث ويتفاعل مع عدد غير محدود من الأفراد، في سياقات متنوعة وفي مواضيع مختلفة، غير أن هذا لم يكن عائقا أمام الباحثين الذين عكفوا على دراسة هذا الفعل التواصل، فقد أثبتت الدراسات المختلفة التي عنيت بدراسة المحادثة كتفاعل تواصل، أن هذه الأخيرة عبارة عن سلسلة أفعال ذات بنية محكمة، يتم الرجوع عند تنفيذها إلى مجموعة من الأعراف الأساسية، بشكل غير معلن، ويعتبر مبدأ التبادل من أساسيات بناء المحادثة وانتظامها، فهو مبدأ عالمي لتنظيم المحادثات مهما كان نوعها، فتبادل "المتكلمين... مبدأ تنظيم تفاعلي يبني المحادثات على مستوى شمولي في المساهمات الكلامية، التي تكون لدى المشتركين في الحدث"⁽¹⁶⁾، فأول ما يلاحظه دارس المحادثة، هو أن شركاء التفاعل فيها يعتمدون على مبدأ التعاون وتبادل الأدوار الكلامية لإنتاجها، وتعتبر مساهماتهم الكلامية ومدخلاتهم العامل

الأساسي لإنجاح التبادل، لأن هذا الأخير لا يتم عشوائيا كما أشرنا إليه سابقا في عنصر التبادل، فتبادل الأدوار الكلامية نأتى عن طريق تقديم المتكلم دور الكلام إلى أحد المتفاعلين معه في الحدث، أو عن طريق ادعاء أحدهم حقه في أخذ الدور لبناء مساهمته الكلامية، وغالبا ما يتزامن ذلك مع بناء المتكلم لخاتمة مساهمته، فتبادل الأدوار يرتبط ارتباطا وثيقا ببناء المساهمات الكلامية، فإذا "بدأ المتكلم ببناء مساهمته الكلامية يجد، تحت تصرفه وسائل بنائية مختلفة؛ أي أن المتكلم يوظف مجالات معرفية مختلفة، تسمح بالتعرف على نمط البناء في المساهمات الكلامية، وكذلك التمهيد الفكري للأدوار التالية، أو حتى لخاتمة المحادثة، ينتهي مع اختتام المساهمة الكلامية حق الكلام لدى المتكلم، وبذلك تصل المحادثة إلى نقطة ذات أهمية في الانتقال، وهي النقطة التي يشرع فيها مشترك تفاعلي كان إلى ذلك الوقت منصتا إيجابيا، باكتساب حق الكلام السابقة، وكذلك إلى سياق الحدث" (17)، وعليه فإن تبادل الأدوار الكلامية تنتظم وفق أعراف غير مصرح بها في المحادثة، غير أن شركاء التفاعل يمثلونها في وعيهم الفكري والإدراكي، فكل شريك في التفاعل يدرك أن عليه إفراح المجال لنظرائه للإدلاء بتدخلاتهم، فلا يجب أن يحتكر حق الكلام لنفسه وحده، لأن ذلك سيزعج شركاءه في التفاعل، وقد يؤدي إلى إخراج ذلك الحدث أو التفاعل من دائرة التواصل المحادثي، إلى حيز الخطاب الاتصالي، مع الإشارة إلى أن في كل محادثة نجد تفاوتاً في نسبة الاستحواذ على الكلمة بين المتفاعلين، فداثما يكون أحد شركاء التفاعل أكثر إسهما في المحادثة من غيره - نقصد الكم - كما يدرك المتفاعلون في المحادثة أن عليهم بناء مساهماتهم الكلامية في إطار الحدث، وأن تكون مساهماتهم واضحة المعالم، ومتراطة فيما بينها، ونقصد بالترابط هنا أن تكون مساهمة المتكلم الأول ممهدة فكريا للأدوار التالية، وأن تكون المساهمات التالية مرتبطة بسابقتها، كأن تأتي على شكل رد إذا كانت المساهمة السابقة تحية أو استفهام، أو تأتي تعقيا أو تعليقا بالإيجاب أو السلب، أي تأييدا أو معارضة، أو إضافات معينة لم يتطرق إليها المتكلم السابق، أو انتقالا إلى نقطة أخرى، أو موضوع فرعي اقتضى الحديث المرور إليه، كما يدرك شركاء التفاعل أن عملية أخذ الدور لها قواعدها، ومبنية على مبدأ احترام الغير، فلا نأخذ الكلمة عنوة أو بالقوة؛ فعلى المتفاعل (الذي يكون في موقع التلقي) أن يتخير اللحظة المناسبة لأخذ الكلمة، وذلك بالاعتماد على تقنيات معينة.

إن الاعتماد على مبدأ تبادل الأدوار الكلامية في تحديد بناء المحادثة، يؤدي إلى أخذ تصور ناقص عن بنية المحادثة، فهذه الأخيرة بناء متعدد الجوانب، فهي في ذلك مثل النصوص الأحادية

بكل أنواعها الخطاب، المقال، القصة، الرواية ... الخ، إذ نعلم في إنتاجها على عاملي الخطية والتسلسل.

تؤكد أوريكيوني أن الرسائل اللسانية في النص المحادثي تكون من وحدات متسلسلة، أي متضمنة بعضها في بعض، من الأصغر (الفونيم) إلى الأكبر (النص)، مروراً ببعض الوحدات التي تنسجها (المورفيم، الكلمة، التركيب أو العبارة، الجملة) بالانتقال إلى تحليل المحادثات، هذه النظرية لـ "المستويات" أو الرتب، يشمل بالتماثل اعتبار المحادثات كمخططات أو هياكل معقدة أو متسلسلة، مركبة انطلاقاً من وحدات مأخوذة من مستويات أو رتب مختلفة، ويندمج بعضها في بعض (الوحدات) وفقاً لبعض القواعد التركيبية⁽¹⁸⁾، فالمحادثات إذاً، كغيرها من الرسائل اللسانية والنصوص، تكون من مجموعة من الوحدات، أصغرها الفونام وأكبرها الجملة، تنتظم وفق نظام خطي ومتسلسل، غير أن في المحادثات يمكن أن نضيف إلى تلك الوحدات المساهمات الكلامية مهما كان حجمها، فهي تنتظم أيضاً وفق نظام متسلسل هو تبادل الأدوار الكلامية، وقد أكدت العديد من الدراسات للنظام الخطي التسلسلي في المحادثات، أن الاقتراح الأكثر تماسكاً وإتقاناً هو ذلك النموذج الذي اقترحه مدرسة جونايف، التي يمثلها رولي وآل (E. Roulet et al)، فحسب رولي كل محادثة تتركب وفق بنية مزدوجة خطية ومتسلسلة.

أ - البنية الخطية "la structure linéaire"

تتوقف البنية الخطية للمحادثة على مفهوم التوغل (l'incursion) المعروف حسب رولي ككل تفاعل لغوي محدد بقاء وافتراق متخاطبين⁽¹⁹⁾، ويحلل التوغل إلى ثلاثة عناصر مكونة خطياً هي:

- تبادل تابع ذو وظيفة افتتاحية (un échange subordonné à fonction d'ouverture) نحو "صباح الخير آنسة" "صباح الخير سيدي".

- تبادل رئيسي ذو وظيفة إصلاحية (un échange principal à fonction de transaction).

- تبادل تابع ذو وظيفة اختتامية (un échange subordonné à fonction de cloture)، نحو شكراً سيدي شكراً جزيلاً إلى اللقاء.

إن التفاعل اللغوي الذي يحدث بين متخاطبين أو أكثر يحوي إصلاحا واحدا على الأقل⁽²⁰⁾، ويتم وفق مجموعة من التبادلات التي تنقسم إلى ثلاثة تبادلات افتتاحية، متنية، واختتامية يجعل من التوغل شيئا مرادفا للمحادثة؛ فما هذه الأخيرة إلا تفاعل لغوي يحدد بالتقاء وافتراق المتخاطبين أو شركاء التفاعل، وبالتالي فإن البنية الخطية لا تمس جزءا من المحادثة بل المحادثة كلها.

ب - البنية التسلسلية "la structure hiérarchique"

أكد رولي أن للمحادثة بنية تسلسلية، وهذا يتحقق عندما يتركب التوغل من عدة إصلاحات (transaction)، والإصلاحات يمكن أن تكون:

- مترابطة (coordonné) (كالشراء المتتابع أو المتعاقب لعدة كتب داخل المكتبة).
- معلقة (subordonné) (محاولة شراء كتاب مربوطة بعملية طلب كتاب).
- إدراج: التبادلات يمكن أن تكون مدرجة في افتتاح أو اختتام التوغل (عبر الهاتف تبادل التحية تسبق بالتحقق من هوية المخاطب عندما يكون التدخل كائنا داخل تبادل يكون غالبا مكونا من فعل رئيسي، ومتبوعا بفعل تابع اختياري (subordonné) ((facultative⁽²¹⁾).

يمكن تشبيه تسلسل التوغل المتعدد الإصلاحات، الذي طرحه رولي، بتسلسل الأفكار في نص له فكرة رئيسية، تدرج تحتها أفكار ثانوية مترابطة فيما بينها وفق نظام متسلسل، وعليه فإن البنية المزدوجة للمحادثة تنقسم إلى قسمين القسم، الأول ويمثل في البنية الخطية المرتبط بالشكل العام للمحادثة، الذي يقسم إلى ثلاثة أقسام: الافتتاح الوسط والنهاية، وبطبيعة اللغة المكتوبة والمنطوقة، فاللغة تتميز بصفة الخطية، وبالتالي فإن كل إنتاج لغوي مهما كان حجمه، سواء أكان كلمة أو جملة أو نصا، فإنه يتسم بالخطية، وما المحادثة إلا تفاعل لغوي، فإنها إنتاج لغوي، وإن كان صانعه ليس فردا بل شخصين فما أكثر، أما القسم الثاني المتمثل في البنية التسلسلية فمرتبط بالمستوى الدلالي لتناول الحدث، ولا نقصد هنا دلالة الألفاظ بالأفكار التي تدرج ضمن الفكرة الهامة المجسدة للحدث، فالتسلسل نلمسه من خلال عرض الحدث بشكل مترابط ومنظم، كما يتعلق التسلسل بالترابط الداخلي للتدخلات التي تحتوي على عدة نقاط، وبترباط التبادل، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال عمل شركاء

التفاعل على إنجاح تبادلاتهم، يجعلها تخضع لتسلسل منطقي يتقبله العرف الاجتماعي والمحدثاتي، ففي تبادل مثل:

أ: السلام عليكم.

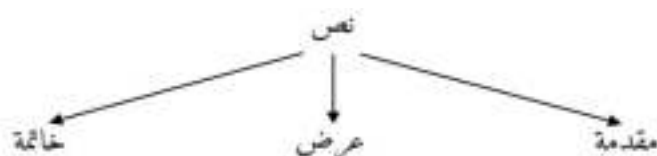
ب: وعليكم السلام، كيف حالك؟

أ: بخير وأنت؟ لم أرك منذ زمن.

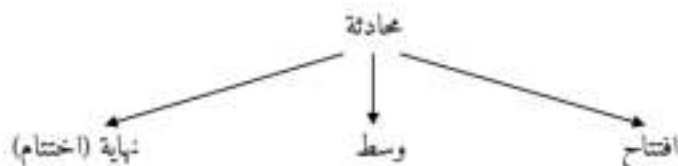
ب: الحمد لله...

تتحقق البنية الخطية بفعل التفاعل اللغوي، كما يتحقق التسلسل والترابط داخل التدخلات المركبة، فالتدخل "ب: وعليكم السلام كيف حالك؟"، خاضع لتسلسل منطقي، لأنه بدأ برد السلام، ثم السؤال عن الحال، فلو حدث العكس لما قلنا عن التدخل أنه مترابط، كما تحقق التبادلات السابقة تسلسلا منطقيًا، في حين أن التبادل الذي يأتي على شكل: أ: صباح الخير، ب: شكرًا، يحقق الخطية لكونه تفاعلا لغويا، ولكن لا يحقق التسلسل الدلالي، ولا الترابط المنطقي، وعليه فإن البنية المزدوجة في أي نص كان، وفي المحادثة على وجه الخصوص، أمر ضروري.

إن البحث في بناء المحادثة يظهر نوعا من التوافق بينها وبين النصوص الأخرى، فإذا كانت هذه الأخيرة تخضع لبناء عام يمكن التمثيل له بالشكل التالي:



فإن المحادثة لا تختلف عن باقي النصوص، فهي تخضع لبناء عام يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، هي: الافتتاح الوسط والنهاية أو الاختتام، وبالتالي يمكن التمثيل لها على النحو التالي:



إن التمييز بين المراحل الثلاثة السابقة في بناء المحادثة أمر منطقي، يمكن إدراكه من خلال أبسط المحادثات اليومية، إلا أن تحقيق التحليل، أو الفصل بينها، أمر في غاية الصعوبة، وإن وجدت بعض

المؤشرات اللغوية وغير اللغوية التي تدل على افتتاح المحادثة أو اختتامها، كتبادل التحية بالمصافحة، وعبارات نحو: "السلام عليكم" "أهلاً" "ألو" "صباح الخير"، وبعبارات الوداع نحو: "إلى اللقاء" "نلتقي في فرصة أخرى إن شاء الله" "وداعاً". ويحدد وسط المحادثة بما يقع بين الافتتاح والاختتام، غير أن هذا ليس كافياً لرسم الحدود الفاصلة بين المراحل الثلاث، لذا تم اللجوء إلى "نماذج أخرى يحاول أن يعلل وضع هذه الحدود وظيفياً، بواسطة وحدات وظيفية معينة، ولكن توظيفاً وظيفياً لمراحل المحادثة الجزئية وحلقاتها، ويتطلب أيضاً أن تربط الوظائف بصفات الأقوال اللغوية في علاقة واحدة، حتى يبين كيف تخرط الأبنية في خدمة الوظائف، ومن خلال اقتراح النماذج الموجودة، يمكن استنباط أن مرحلة افتتاح المحادثة، وكذلك أيضاً مرحلة اختتامها، يمكن تحديدها بدقة نسبية، خاصة أن عبارات التحية والأقوال غير الاتصالية، وغيرها من الظواهر اللغوية، تعطي مؤشرات إلى فواصلها الحدودية، أما الصعوبة الأساسية فما زالت تقع كما كانت من قبل، في تعريف ما يسمى وسط المحادثة، أو مرحلة تحقيق الهدف بدقة" (22).

إن محاولة تحديد الحدود الفاصلة بين المراحل الثلاثة للمحادثة وظيفياً، لا يعني الاستغناء عن المؤشرات اللغوية، باعتبار أن لهذه الأخيرة وظائف خاصة، تدل على افتتاح أو اختتام المحادثة، وعلى الرغم من ذلك، فإن تحديد هاتين المرحلتين يبقى تحديداً نسبياً، لعدم وجود حد فاصل وقطعي بينهما وبين مرحلة تحقيق الهدف، فغالباً ما تمهد الافتتاحية للدخول إلى الموضوع أو الحدث، ويمهد تفاعل تحقيق الهدف عند بلوغه مرحلة معينة من التحقيق لاختتام المحادثة، غير أن الصعوبة الأكبر تكمن في امتثال حدود وسط المحادثة.

قائمة المراجع باللغة العربية

- 1- ينظر: فليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1، 2007م
- 2- فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، تر: فالح بن شبيب العجمي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 1999.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية

- 1- C. K. Orecchioni: La conversation, Mémo, seuil éditions, Paris, Juin 1996.
- 2- C. K. Orecchioni, Les intractions verbales, 3^{ème} édition, aramand, Colin, Paris, octobre 2001.
- 3- Discours d'enseignement et discours médiatique pour une recherche de la didacticité.



4- J. Moeschler, Argumentation et conversation éléments pour une analyse pragmatique de discours, Hatier, Paris Aout 1985. -Ibid p 17.

¹ فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، تز: فالح بن شبيب العجمي، النشر العالمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، ص: 249.

² C. K. Orecchioni, La conversation, Mémo, seuil éditions, Paris, Juin 1996, p 34.

³ Ibid, p 35.

⁴ Ibid; p 36.

⁵ ينظر: فليب: بلانشيه: التداولية من أستين إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1، 2007م، ص: 86، 87.

⁶ ينظر: J. moeshler argumentation et conversation, p 81, et C. K. Orecchioni, la conversation, p 37.

⁷ C. K. Orecchioni, La conversation, p 38.

⁸ Ibid, p 38 et 39.

⁹ J. Moeschler, Argumentation et conversation, p 83

¹⁰ C.K.Orecchioni, Les intractions verbales, 3^{ème} édition aramand, Colin, Paris, octobre 2001, p18.

¹¹ ينظر: فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل الى علم اللغة النصي، ص: 257.

¹² C. K. Orecchioni, La conversation, p 37.

¹³ Ibid, p 37.

¹⁴ Ibid, p 36.

¹⁵ J. Moeschler, Argumentation et conversation, p 81.

¹⁶ فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ص: 256.

¹⁷ المرجع نفسه، ص: 256، 257.

¹⁸ C. K. Orecchioni, La conversation, p 35-36.

¹⁹ Discours d'enseignement et discours médiatique pour une recherche de la didacticité. p 17.

²⁰ voir: Ibid P 17.

²¹ Ibid p 18.

²² فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل الى علم اللغة النصي، ص: 260.